TURKISH ACADEMIC RESEARCH REVIEW
Türk Akademik Araştırmalar Dergisi
e-ISSN: 2602-2923

İslam Düşüncesi ile Batı Modernliği Arasındaki Kadın Temsilleri: Prens Abdülkadir el-Ceziri'nin Fransız Generale Yazdığı Mektuplar

Representations of Women Between Islamic Thought and Western Modernity: Prince Abd al-Qadir al-Jaziri's Letters to the French General

Öz

Fransız generalin El Emir'e yönelttiği sorular, erkek otoritesine karşı çıkan ve kadınlarla erkekler arasında homeostatik eşitlik ve kadınlar için mutlak özgürlük talep eden feminist hareketlerin yükselişini göz önünde bulundurarak sorulmuştur. Bu hareketler Fransız Devrimi ve Avrupa'daki Aydınlanma felsefesiyle aynı döneme denk geliyordu. Bu liberal ve modernist fikirler ışığında General Dumas, Emir Abdülkadir'e İslam toplumlarında kadınların durumunu kınayan birçok soru yöneltti. Bu araştırma, aydınlanmış düşüncesi ve seçkin ve ciddi bilimsel önerilerinin derinliği ile Arap dünyasından önce Batılı kültür çevrelerinin tanıklık ettiği seçkin bilgin, hukukçu ve yazar Emir Abdülkadir'in mektuplarında gelenleri tanımlayarak, İslam toplumundaki konumlarının Batı tarafından kınanmasına yanıt olarak İslam'da kadının statüsünü belirlemeyi amaçlamaktadır. Kendi modelini yaygınlaştırmaya çalışan ve hala çalışmakta olan Batı entelektüel sisteminin aksine, eleştiri ve yaratıcılığımızla mirasımızdaki orijinal bilgi kaynaklarından birine dönmeye ve onu doğru bir temel ve referans olarak almaya gayret ediyoruz.

Anahtar Kelimeler: Emir Abdülkadir, İslam, General Dumas, Feminizm, Kadın, İslam.

Abstract

The French general's questions addressed to Al Emir came in view of the rise of feminist movements, which oppose male authority and demand homeostatic equality between men and women, and absolute freedom for women. These movements were coinciding with the French Revolution and the philosophy of the Enlightenment in Europe. In the light of these liberal and modernist ideas, General Dumas directed many questions to Emir Abdelkader, denouncing the situation of women in Islamic societies. This research aims at identifying the status of women in Islam, in response to the Western condemnation of their position in the Islamic community, by defining what came in the letters of Al Emir Abdelkader, the eminent scholar, jurist, writer and author who was witnessed by Western cultural circles before the Arab world with his enlightened thought and the depth of his distinguished and serious scientific proposals. In contrast to the Western intellectual system that attempted - and is still attempting - to promote its model, we endeavour to return with our criticism and creativity to one of the original sources of knowledge in our heritage taking it as a correct basis and reference.

Keywords: Al Emir Abdelkader, General Dumas, Feminism, Woman, Islam,

Nadjat BOUKEZZOULA

Dr. Öğr. Üyesi, M'hamed Bouguerra Üniversitesi'nde, Boumerdes, Cezayir.
Dr. Lecturer Professor, M'Hamed Bouguerra University, Boumerdes, Algeria.
أستاذ محاضرأ، جامعة أمحمد بوقرة بومرداس، الجزائر
n.boukezzoula@univ-boumerdes.dz.
https://orcid.org/0009-0007-5127-8941
https://ror.org/02dveg925

Makale Türü-Article Type: Araştırma Makalesi/Research Article
Geliş Tarihi/Recieved: 03.05.2023
Kabul Tarihi/Accepted: 21.06.2023
Yayım Tarihi/Date Published: 25.06.2023

***Atıf/Cite as*:** Boukezzoula, N. (2023). İslam Düşüncesi ile Batı Modernliği Arasındaki Kadın Temsilleri: Prens Abdülkadir el-Ceziri'nin Fransız Generale Yazdığı Mektuplar. *Turkish Academic Research Review, 8 (2),* 988-997.

Değerlendirme/Peer-Review: Ön İnceleme: İç Hakem (Editörler). İçerik İnceleme: İki Dış Hakem/Çift taraflı körleme. Single anonnymized-One internal (Editorial Board). Double anonymized-Two extarnal.

Benzerlik Taraması/Plagiarism Checks: *Yapıldı-Turnitin/Yes-Turnitin.*

Yayıncı/Published: Published by Mehmet ŞAHİN Since 2016- Akdeniz University, Faculty of Theology, Antalya, 07058 Turkey.

***Etik Beyan/Ethical Statement*:** Bu çalışmanın hazırlanma sürecinde bilimsel ve etik ilkelere uyulduğu ve yararlanılan tüm çalışmaların kaynakçada belirtildiği beyan olunur. / It is declared that scientific and ethical principles have been followed while carrying out and writing this study and that all the sources used have been properly cited. Nadjat Boukezzoula

Çıkar Çatışması/Conflicts of Interest: Çıkar çatışması beyan edilmemiştir. / The author(s) has no conflict of interest to declare.

Finansman/Grant Support: Bu araştırmayı desteklemek için dış fon kullanılmamıştır. / The author(s) acknowledge that they received no external funding in support of this research.

Etik Bildirim/Complaints: turkisharr@gmail.com

Telif Hakkı & Lisans/Copyright & License: Yazarlar dergide yayınlanan çalışmalarının telif hakkına sahiptirler ve çalışmaları **CC BY-NC 4.0** lisansı altında yayımlanmaktadır. / Authors publishing with the journal retain the copyright to their work licensed under the **CC BY-NC 4.0**.

تمثيل المرأة بين الفكر الإسلامي و الحداثة الغربية من خلال

رسائل الأمير عبد القادر الجزائري إلى الجنرال الفرنسي أنموذجا

الملخّص باللّغة العربية :

لقد جاءت أسئلة الجنرال الفرنسي الموجّهة للأمير، في ظلّ تصاعد الحركات النّسوية المناهضة للسّلطة الذّكورية-حسب رأيها- والمطالبة بالمساواة التّماثلية بين الرّجل والمرأة ،والحرّية المطلقة للمرأة ،هذه الحركات كانت متزامنة مع الثّورة الفرنسية،وفلسفة الأنوار في أوروبا وفي ضوء هذه الأفكار التحرّرية الحداثية ، وجّه الجنرال دوماس إلى الأمير عبد القادر أسئلة كثيرة مستنكرا وضعية المرأة في المجتمعات الإسلامية.

ونروم من خلال هذا البحث تبيّن مكانة المرأة في الإسلام، ردّا على الاستنكار الغربي لوضعيتها في المجتمع الإسلامي من خلال التّعريف بما جاء في رسائل الأمير عبد القادر؛ العالم الجليل والفقيه والكاتب والأديب الذي شهدت له الدّوائر الثّقافية الغربية قبل العربية بفكره المتنوّر و عمق طروحاته العلمية المتميّزة والجادّة ، في مقابل المنظومة الفكرية الغربية التي حاولت -ومازالت تحاول - التّرويج لنموذجها ،سعيا منّا للعودة بنقدنا وإبداعنا إلى إحدى المنابع الأصيلة للمعرفة في تراثنا لاتّخاذها مرتكزا ومرجعية صحيحة .

الكلمات مفتاحية: الأمير عبدالقادر،أسئلة ،إجابات ، الجنرال دوماس ،النّسوية ،المرأة ،الإسلام

مقدمة:

نسعى من خلال بحثنا هذا للكشف عن حقيقة مكانة المرأة في الإسلام انطلاقا من تراثنا الأدبي والفكري الأصيل (باعتبار مدوّتنا – رسائل الأمير –تندرج ضمن فنّ الترسّل كفنّ أدبيّ عريق في تراثنا) ،في ظلّ التوجّه المحموم نحو ما بات يعرف في السّاحة الأدبية العربية؛ بالأدب النّسوي والنّقد النّسوي،وقضايا الجندر، وصراع الذّكورة والأنوثة .....إلخ ،وما انطوت عليه هذه النّصوص والكتابات من دعوات إلى تحرّر المرأة في مجتمعاتنا، تأسّيا بدعوات الحركات النّسوية الغربية،وقد اخترنا الوقوف على رسائل الأمير عبد القادر إلى الجنرال الفرنسي، بوصفها نصوصا حملت رؤية موضوعية عن المرأة وفق مرجعية أصيلة لا تخرج عمّا أقرّته الشّريعة الإسلامية، نستطيع من خلالها إبراز تمثّلات المرأة عند الأمير عبد القادر العالم الجليل والفقيه والكاتب والأديب الذي شهدت له الدّوائر الثّقافية الغربية قبل العربية بفكره المتنوّر و عمق طروحاته العلمية المتميّزة والجادّة ، بما يتيح لنا العودة بنقدنا وفكرنا إلى إحدى المنابع الأصيلة للمعرفة في تراثنا ،من خلال إماطة اللّثام عن ماجاء في هذه الرّسائل التي كتبها الأمير ردّا على الاستنكار الغربي لوضعية المرأة في المجتمعات الإسلامية، محاولا التّرويج لنموذجه ،ونستطيع بذلك أن نقارب هذه الظّاهرة الخطيرة من خلال طرح موضوعي مرجعيته بالأساس ؛ الشّريعة الإسلامية، والوصول للحلول التي يطرحها الأمير للقضاء على بعض الاختلالات التي تنخر مجتمعاتنا ،حتّى ننهض بها وفق رؤية استشرافية أصيلة واعية بدور المرأة الحقيقي في المجتمع، بما يضمن حفظ مكانتها و عودة الحضارة الإسلامية إلى سابق عهدها .

1-السّياق الثّقافي لرسائل دوماس و تصاعد الحركة النّسوية في الغرب :

لقد نشأ التّيار النّسوي الليّبرالي المعروف بحركة تحرير المرأة على مراحل ،حيث بدأت الحركة النّسوية في الفكر الغربي في القرن التّاسع عشر، ولكن تعود جذورها إلى بعض الحركات المناهضة لتبعية النّساء للرّجال في المجتمع الغربي، والتي برزت في انجلترا في القرن السّابع عشر، ثمّ امتدّت في كلّ من فرنسا والولايات المتّحدة (حوسو، 2009، صفحة 46) بدءا بثورتين في المجتمع الغربي؛الثّورة الأمريكية عام 1779م،والثّورة الفرنسية عام 1789م،واللّتين رفعتا مبدأين أساسيين: مبدأ المساواة والحرّية ،ومبدأ المساواة التّماثلية بين الرّجل والمرأة ،ففي القرن الثّامن عشر ومع بروز حركة التّنوير ظهر فلاسفة راحوا ينادون بالمساواة الفكرية بين المرأة و الرّجل أمثال هملفسيوس (م1715-1771)) Hemlvisiusوكذا كوندورسيه (43 17م_1894م)Condorssier الذي كتب مقالا رأى وجوب دعم الحقوق السّياسية للمرأة،وفي نفس السّياق عدّ جون ستيوارت مل 1806- 1873 Stuart Mill نصيرا ليبراليا قويّا للمرأة ،حيث دعا إلى المساواة بينها وبين الرّجل حتّى أنّه أفرد لذلك كتابا أسماه «استعباد النّساء..»، وأعلن فيه صراحة عن آرائه وإدانته لطبيعة القوانين السّائدة في الغرب التي كانت تنظّم العلاقات بين الجنسين. هذا الموقف وجد له نصيرا آخر هو الانجليزي برتراند راسل 1872_1970 Bertrand Russelحيث دعا إلى المساواة بين الرّجل والمرأة إلى درجة أنّه كثيرا ما نادى بالحرّية العاطفية والجنسية لهما بقدر متساوي (علاوشيش، صفحة 46)

ويؤكّد أحد الباحثين العرب المشتغلين على فكرة النّسوية أنّ« هذه الدّعوات لتحرير المرأة هي صدى لثقل التّقاليد اليهودية والمسيحية التي امتزجت بالأرسطو طاليسية في المرحلة الكلاسيكية وأيضا في العصور الوسطى،والتي اعتبرت أنّ المرأة تجسيد للشرّ والخطيئة والشّياطين ،فلم تكن تلك الآراء حولها بذلك سوى صدى لفلسفات وعقائد أسّسها رجال واحتكروها على مدى التّاريخ وهي تعكس وضعا من اللّامساواة والدّونية » (علاوشيش، صفحة 27).

وبذلك راحت هذه الحركة تطالب بتغيير البنى الاجتماعية،والثّقافية، والعلمية،واللّغوية،والتّاريخية باعتبار أنّها متحيّزة للذّكر ومحاولة القضاء على مركزية الذّكر، لكنّها وقعت في مركزية أخرى فقد بلغ الحدّ بهذا التّيار إلى الدّعوة إلى دين جديد (الوثنية النّسوية)،أو دين المرأة الجديد –بحسب تعبيرهم (الذي يقوم على أساس تأليه المرأة، مقابل الأديان الذّكورية التي فيها الإله ذكر).

2- **أثر النّسوية في الفكر العربي الحديث** :

لقد تسلّل تيار الحركة النّسوية إلى المجتمع العربي زمن الاستعمار حيث عمل على نشر أفكارها والتّرويج لها بين الأوساط الثّقافية والاجتماعية،فظهرت أصوات ترفع شعارات النّسوية الغربية وتدعو إلى مادعت إليه في الغرب،و منذ ذلك الوقت ظهرت كتب وأبحاث عربية تناصرها، وراجت مصطلحات من مثل الإيديولوجياالنّسوية، والمذهب النّسوي،والحركة النّسوية، والرّومانتكية الجنسية والجندر،والهامش والمركز،الذّكورة والـأنوثة.. . حيث ركّزت هذه الدّعوة على أمرين فيهما من الخطورة بمكان وهما ؛

أوّلا: أنّ المرأة العربية فاقدة لحرّيتها وتعاني اضطّهاد الرّجل وممارسته سلطته عليها بسبب التعصّب الدّيني والانغلاق ...إلخ

ثانيا:وجوب تحريرها وفكّ إسارها من سلطته استجابة للتّيار النّسوي الغربي ووفق مبادئه وشعاراته .

وقد حقّقت هذه الحركة في مجتمعاتنا الإسلامية مكاسب خطيرة، من نشر للثّقافة الغربية وضعف الولاء للإسلام، ونزع الحجاب،وانتشار الانحلال، والتّشكيك في الثّوابت الدّينية، والهجوم على القدوات الحسنة في المجتمع الإسلامي تحت شعار العمل الحقوقي والنّشاط الاجتماعي وكان ذلك عن طريق إنشاء الجمعيات النّسوية، ورسالة الفنّ الهابط والحركات الماسونية (البليهد) .

وقد ساندتها بعض الأصوات النّقدية والفكرية العربية، وأسهمت في نقل أفكار هذه الحركات وإسقاطها على مجتمعاتنا والتّرويج لها وبعثها مشكلة لابدّ لها من حلول، و دعت إلى تحرّر المرأة العربية وإخراجها من دينها وعاداتها الشّرقية ، لتقلّد المرأة الغربية وتناصرها وتدعمها في كفاحها ضدّ الرّجل ،تقول إحدى النّسويات : « الحرّيّة الجنسية أساس من أسس الحركة الحقوقية النّسوية ولانخجل من ذلك ،ولانخفيه بل نعلنه بقوّة لن يقيّدنا أحد بالكلمات ولا بالقوانين وبالتّهديدات بالقتل نحن هنا حرائر فكريا وجنسيا» (البليهد).

كما ألفينا إحدى الباحثات تقول : « والحقّ أنّ الدّفاع عن حقوق المرأة يظلّ حجّة قائمة على أنّ الحرّية الثّقافية تصير شرط إمكان بناء مجتمعات مدنية، إذ لا شيء يمكن تبريره باسم الحرّية من دون أن يكون طغيانا باسم النصّ المقدّس وبالتّالي فصلا وإقصاء للمرأة من مملكة الإبداع » (نادرة ، 2013، صفحة 23).

وقد اعتقد بعض الدّارسين من خلال تفسيرات قاصرة، لبعض الآيات القرآنية «..بأنّ هناك دلائل-حسب فهمه القاصر- تشير إلى الدّونية النّسوية ،ومن ذلك أن يكون الرّجل في الإسلام قوّاما على المرأة وأنّ له في الإرث مثل حظّ الانثيين ،وأنّ شهادته مساوية لشهادتين من شهادات النّساء ،وأنّ من حقّ الرّجل أن يضرب المرأة النّاشز ،وأن يتزوّج أربع نساء ،وأنّ المرأة ناقصة عقل ودين..» (المناصرة، 2008، صفحة 153).

فهذه باحثة -على سبيل المثال- ممّن اعتقدن بالنّسوية تغالي في تفسير مثل هذه الشّواهد لتقول : «لعبت هذه الإيديولوجيا الدّينية دورا كبيرا في تكريس دونية المراة واعتبارها كائنا ناقص عقل ودين ،يجب السّهر عليه بل قهره نفسيا واجتماعيا وجسديا لأنّه غير أهل للحرّية والاستقلال بالشّخصية وبالتّالي تحقيق الذّات ..» (المناصرة، 2008، صفحة 30)

وبلغ الحدّ ببعض النّسويات إلى المبالغة في ذكر أسباب رفض الحجاب والحجّة أنّ الرّجل لا يلبس الحجاب هذا ماتضمّنه سؤال أخرى في مقال لها نشرته جريدة القدس العربي جاء فيه: « لماذا المرأة تغطّى والرّجل لا يغطّى؟ ..» (السعداوي)

وهي حجّة عبثية ،تؤكّد على الجهل التّامّ بالقيم الدّينية الإسلامية والحكمة من التّشريع الإلهي ،وسوف نعرض للردّ على هذه الشّعارات من خلال رأي الأمير عبد القادر ،والحجج التّي قدّمها والمستمدّة أساسا من الشّريعة الإسلامية .لنستبين نظرة الأمير – بصفة خاصة – ورؤيته للمرأة؟ فهل نظر إليها كجزء فاعل في الحضارة الإسلامية على مر العصور؟ أم هل استجاب الأمير لتلك النظرة التشكيكية في وضع المرأة بالنسبة للشريعة

الإسلامية؟ وهل جاءت إجاباته متساوقة مع الفكر الغربي في نظرته وعلاقته بالمرأة خارج ما حددته الشرائع وعارض بالتالي مكانتها في الشريعة الإسلامية،محاولاً إرضاء هذا الغرب ومداهنته؟ وهل وقف موقف المبرر الذي يخفي بعضا من حقيقة تلك الأحكام الخاصة بها في االشريعة الإسلامية؟ خوفا من أن يحكم الغرب عليه؟ هذا ماسنحاول اكتشافه عبر هذه الصّفحات من هذا البحث المتواضع .

3- المرأة من منظور الأمير :

لقد كان الأمير بالذات يحترم المرأة ويقدرها ويجلّها ليست الزوجة والأم وحسب بل ينظر إلى المرأة بصفة عامة أنها إنسان لديها حقوق وعليها واجبات مثلها مثل الرّجل وهي نظرة مستمدّة من الدّين الإسلامي فقد حظيت المرأة في دولة الأمير بالحرّية التي منحها لها الإسلام فمارست دورها في المجتمع الإسلامي جنبا إلى جنب مع أخيها الرّجل ، إذ لا ننسى استشارته زوجته وابنة عمه _وهو يخبرها مبايعته لقيادة الجهاد_ بين البقاء إلى جانبه والصبر والتحمل وبين الفراق لانشغاله عنها بأمور الجهاد وتمليكها أمرها بيدها (الجزائري، 1930، صفحة 97)

ولم يمسكها مرغمة، بل أعطاها مطلق الحرية فاختارت أن تصبر على أميرها ومن تقدر ألا تفعل غير هذا من نساء المسلمين حين ينادي داعي الجهاد في سبيل الله والوطن ، بل إن المتمعن في حياة الأمير يكشف أن المرأة في حياته غير مستبعدة من حياته الجهادية،والسّياسية ، فوالدته عايشت معه كل مراحله الجهادية وشاركته في بعضها وهي تدعمه بحليها وذهبها في سبيل الله. وتؤكّد بعض الدّراسات التي تناولت سيرته أنّ الأمير استشارها في أخطر موقف مر عليه في جهاده، وأنّه قد اجتمع بها وقتاً طويلاً قبل أن يقرر وقف القتال في 15 كانون الأول 1847م، 07 محرم 1264هـ وشاورها طويلا في هذه المسألة (المرابط، 2007، صفحة 77) بعدما حالت الأقدار دون مواصلة الجهاد أمام تعسف الاحتلال وإصراره على حرق البشر والشجر، فكان باستشارته قد أثبت أن المرأة عنده كانت فاعلة في دولته،و رأيها يحظى بالتقدير والاهتمام عند الرجل .

ولم تكن هذه المواقف النّبيلة للأمير مع زوجته ووالدته وحسب ،بل ظهرت إنسانيته وتوقيره للمرأة بصفة عامّة أثناء زمن الجهاد ،حيث كان يشفق على الأسيرات ويثير اشمئزازه مجرّد رؤيتهن وهن مقتادات إلى الأسر ،إذ لم يكن الأمير راضيّاً عن أسر وسجن النساء، وقد وعد في مرسومه الشّهير عن حقوق الإنسان في الحرب بإعطاء جائزة لمن يأتي بامرأة سالمة أكبر من جائزة الأسير الذكر، خوفاً عليها ورأفة بها، وترغيباً في حمايتها، وحتى يشجع الجنود على سلامتها، و قد ركّز في كتابه المقراض الحادّ على قضيّة تحريم قتل امرأة أو التعرض لها بأذى أثناء الحرب في الشريعة الإسلامية (الأمير عبد القادر، 1989، صفحة 199)

وقد كان الأمير شديد الإباء من رؤية السجينات، وكان يزعجه منظر المرأة السجينة، فالتفكير في أن تصبح المرأة ضحية للحرب كان في حد ذاته مصدر قلق دائم له، وذات يوم أحضر الفرسان بن يديه أربع فتيات أسيرات، معتقدين أنها غنيمة هامة، فأدار وجهه اشمئزازاً وقال«.في سخرية أنّ الأسود تهاجم الحيوانات القوية، أما أبناء أوى فتسقط على الضعيفة منها..» (تشرشل، 1974، صفحة 204).

كما كان الأمير حريصاً أشد الحرص على الأسيرات، فلم يجد إلاّ الزمالة عاصمته المتنقلة بجنب خيمة والدته مكاناً آمناً يأويهن فيه، وقد تولت والدته بنفسها رعاية وحماية النّساء الأسيرات، وقدمت لهن الدعم النفسي والرعاية الصحية والطعام الجيّد، يقول هنري تشرشل: كل« تلك لأعمال الطيبّة لتي تهدف إلى التلطيف والتخفيف من العناء الذي لا يوصف لليائسين والمبعدين عن ذويهم لا تكاد تقارن الأعمال التي قامت بها والدة السلطان "للا الزهرة" تلك المرأة الوديعة المهذبة، فقد قامت بحماية كل النساء السجينات كما لو كانت تفعل ذلك عن حق وراثي، وكانت العناية واللطف اللذان تبدهما عظيمين وفي نفس الوقت مثالين يحتذيان.» (تشرشل، 1974، صفحة 204)..

لقد اختار الأمير خيمة قريبة من خيمة والدته لإقامة الأسيرات، ووضع عليهن حرساً من إمائها، ولم يكن يسمح لأحد بالاقتراب منهن بدون رخصة، وكانت تحرص والدة الأمير بنفسها على إطعامهن من يديها، فكانت ترسل إليهن كل ما يلزمهن من زيت وزبدة ولحم مبدية حناناً وعطفاً علهما يخففان من آلام الأسر.

كانت التّعاليم الدّينية زمن الأمير تحترم من طرف الجميع فوالدة الأمير تعلم جيّدا أنّ المساس بأمن الأسرى محرّم شرعا وأنّ الإحسان إليهم معروف عظيم فما كان منها إلّا أن توفّر للأسيرات الرّعاية والحماية وتكرمهنّ بكلّ ودّ .

وهكذا كان الوفاء والولاء للدّين يدفع بالأمير أن يحترم المرأة ويجلّها ، فقد أنزلها منزلة تليق بإنسانيتها، وبهذا يكون قد أقرّ بعداً إيمانيّاً و إنسانيّاً ، بقي شاهدا عن مكانة المرأة في الإسلام .

4- السّياق التّاريخي الذي جاءت فيه رسائل الطّرفين :

قبل أن نعرض لردود الأمير _كممثل للحضارة العربية الإسلامية ومفاخر بمرجعيتها الدّينية ومدافع عن مكانة المرأة في الإسلام_ على الجنرال دوماس _كممثل للمدنية الغربية والمدافع عن الفكر الغربي_ قبل ذلك لابد من الحديث عن الإطار العام الذي تم فيه هذا الحوار ونعرّف

بالسّائل وطبيعة العلاقة التي جمعته بالأمير ،لنستبين أسباب التوجه إليه بالذات بهذه الأسئلة، لعل ذلك مما يساعدنا على فهم هذه الرّسائل و مقاربة بعض الإشكالات وفهمها كونها مازالت مثار جدل إلى يومنا هذا .

لقد كان دوماس ؛جنرالاً من أكبر جنرالات فرنسا في الجزائر، اشتهر بخوضه معارك ووقائع جسيمة ضد جيش المسلمين بقيادة الأمير عبد القادر، ثم عينته فرنسا وكيلا لها عند الأمير أثناء معاهدة التافنة، وهناك تعلم اللغة العربية واطلع على كثير من عادات العرب المسلمين، وقد كتب هذه الأسئلة وبعثها إلى الأمير وطلب رد الجواب عنها (الجزائري، 1930، صفحة 161)، ويمكن أن نتعرف على انطباع دوماس عن الأمير من الرسالة التي وجهها الأسقف دوبوش، يدعوه فيها إلى زيارته في سجنه، فقد كان دوماس مرافقاً للأمير في سجنه بقلعة "لامالق،" جاء في في الرّسالة: «. إنك ستشاهد سجين قصر "بو" الشهير، أوه إنك بالتأكيد لن تندم على زيارتك له، إنك عرفت عبد القادر في أيام عزه، عندما كانت كل الجزائر تقريباً تعترف بحكمه، حسناً إنك ستجده أعظم وأجل في محنته منه في عزه » (تشرشل، 1974، صفحة 258). يمكننا القول إذاً أن دوماس على بيّنة ومعرفة عميقة بالأمير ، لكونه خبر ه وعرف توجهه وانفتاحه ونبله وسمو أخلاقه بما أوحى له الثقة في أنه لن يخذله في الرد عن أسئلته، فبعث بها إليه ،كما أنّه على اطلاع معتبر بأحوال العرب والمسلمين، نظراً لمعايشته عاداتهم وتقاليدهم ودينهم وأحوالهم.

5-تمثيل المرأة من خلال رسائل الأمير:

لقد وجّه الجنرال الفرنسي دوماس إلى الأمير عبد القادر ما ينيف عن ثلاثين سؤالا حول مكانة المرأة في الشّريعة الإسلامية ،مستنكرا وضعها في المجتمعات الإسلامية ،وقد تركز موضوع الأسئلة والأجوبة التي دارت بين الأمير عبد القادر والجنرال الفرنسي ، جملة وتفصيلاً حول المرأة واتصل بجميع ما تعلق بها سواء ما تعلق بمكانتها في المجتمعات العربية والإسلامية، وعلاقتها بالزوج وقضية تعدد الزوجات عند المسلمين،أو ما تعلّق بما فرضته عليها الشريعة من واجبات كالحجاب، وعدم مساواتها في الميراث مع الذكر، و كذا المهر المقدم لها حين زواجها،وحريتها وغيرها، وسنتخير بعض هذه الأسئلة وإجابات الأمير عليها على أهميّتها كلّها،فإنّنا نكتفي ببعضها كأنموذج بما يعيننا على اكتشاف الغاية من وراء هذه الحوارات عند الطرفين، ومعرفة خلفية كل منهما في نظرتهما للمرأة وبالتالي الخلفية التي وجهت الأسئلة والأجوبة، ولعل أهم ما جاء في هذا الحوار ويجيبنا كل ذلك: جاء سؤال دوماس للأمير حول طريقة زواج المسلمين زاعماً أنهم يتزوجون من غير أن ينظر أحدهم إلى من يريد الزواج منها وأن ذلك –في رأيه- مما يؤدي إلى الفراق (الجزائري، 1930، الصفحات 161-162).

وملخص جواب الأمير أن المسلمين لا يتزوج أحدهم إلا بعد النظر إلى من يريدها من النساء، وأن شرع الإسلام يجيز للرجل النظر إلى من يريد الزواج بها مستدلاً على جوابه بما ورد في حديثه صلى الله عليه وسلم:«... إذا أراد أحدكم أن يتزوج بامرأة فلينظر فإن بذلك تدون الألفة والمحبة بينهما مؤكداً أن طريقة العرب لا تخرج ولا تتعارض مع ما أباحه الشرع» (الجزائري، 1930، صفحة 162) .

وجاء سؤال دوماس عن صداق المرأة وما يدفعه الزوج من مال مصحوباً بتهمة تشييء المرأة وحسب رأيه فإنه ما دام دفع مالاً فإنها حسب رأيه تصير ملكا للزوج تماما كالأشياء التي يشتريها ، فرد الأمير مبينا طبيعة العلاقة بين المسلم والمرأة التي يتزوجها من أنها علاقة محكومة بالمحبة لا بالمادة وإنما قضية الصداق لها حكمة أ خرى في شريعتنا مخالفة تماما لفكرة التشيتيء قائلاً: «... ولو دفع الرجل للمرأة قناطير الذهب والفضة لا يحسبها مملكه ولا يجعلها بمثابة الشيء المشترى» (الجزائري، 1930، صفحة 163). ويؤكد على ما ذهب إليه مستدلا بمأثور العرب من أقوال تكشف عن حقيقة علاقة الرجل العربي بامرأته، على أنه انتقد بعض الحالات الشاذة في مجتمعاتنا والتي خالفت الشريع وخالفت أيضا ما توارثناه من قيم وأخلاق وتقاليد وأعراف تواضع عليها المجتمع الإسلامي، تحدد دوافع الزواج ومقاصده قائلاً: «.... ولا يتزوج المرأة لأجل مالها إلا أخساء الناس فأكثر المسلمين لا يتزوّجون النساء لمالهن ويقبح على الرجل الكريم أن يخطب امرأة ويسأل عن مالها، فهو سارق لص، وقالوا هذا فعل يشبه التجارة، وليس من مقاصد النّكاح ولا من مكارم الأخلاق » (الجزائري، 1930، الصفحات 162-163).

مستدلاً بما تواضعوا عليه في هذا المجال حتى صار أشبه بقانون تلتزمه كل المجتمعات الإسلامية، وإن لم تقل به الشريعة، ولا يتعارض معها،ففي رأي الأمير ؛يلزم أن يكون الرجل فوق المرأة بثلاثة أشياء «....المال والسن والشّرف وإلا احتقرته » (الجزائري، 1930، صفحة 163). والعلة في ذلك من منظور الأمير وفق عاداتنا وتقاليدنا التي لا تتعارض مع الشرع أنّ الرجل المسلم يحب أن يرى الفضل له على امرأته. وحتى يؤكد مشروعية هذه النظرة وموضوعيتها، ويظهر تفوّق قيمه على معايير المدنية الغربية التي نظرت بها إلى المرأة وهي تنأى عن الشرائع والأديان، يستحضر ما ورد في العهد القديم في سفر التكوين : «..قال الله لحواء، تكونين تحت سلطان الرجل وهو يتسلط عليك فإذا خالف الرجل هذا وصار تحت قهر المرأة فقد خالف حكمة الله....» (الجزائري، 1930، صفحة 163). وهكذا يستطرد الأمير في تقديم الحجج والأدلة لإثبات مقاصد النكاح عندنا وأنها بعيدة عن نظرة التشييئ للمرأة حتى لو دفع الرجل مهراً، مؤكداً أن المسلم إنّما يتزوج المرأة حبًّا بها.

وفي جوابه عن سؤال دوماس عن ظاهرة التعدد في الزوجات عند المسلمين، واستغرابه من قبول الحرة المسلمة أن يتخذ زوجها جارية وطريقة المسلم للعدل والتسوية بين زوجاته؟يقدم الأمير إجابة شاملة تستند إلى أدلة شرعية يسعى من خلالها إلى إظهار الحكمة من تعدد الزوجات بما يضمن سلامة الدين عند الرجل وحصانة له من الوقوع في ما حرم الله «..فمن كانت سلامته في واحدة فهو أفضل ومن لم يسلم دينه بواحدة أذن له في أن يتزوج أكثر من واحدة. ..» (الجزائري، 1930، صفحة 164).

كذا ما يستجلبه التعدد من فائدة وحفاظ على بقاء النوع البشري، وذلك بتكثير السلالة مذكراً بفائدتها الطيبة للرجل مفصلا الحديث عن الأسباب والعلل البيولوجية وميزات وخصائص الرجل المسلم بما يسمح له ـ الزواج أكثر من واحدة .

على أنّ الأمير يقرّ أن تعدّد الزوجات لا يخرج عمّا أباحه شرع الإسلام ،ولم يوجبه أو يلزم به مذكّرا بالحكمة من إباحته، وعلاقته بالخصائص التي تميّز بها الرّجال المسلمون أهّلتهم للزّواج بأكثر من واحدة - فصّل الأمير الحديث عنها في هذا الردّ- من أجل إفهام سائله وتوضيح حقيقة الطبيعة البيولوجية لهم وأسباب اختلافهم عن رجال الغرب (الجزائري، 1930، صفحة 164)

وهذه الخاصية إنما حدثت لرجال المسلمين دون رجال الأمم الأخرى لأسباب وعادات عندهم تتصل بالشرع، ووضّحه لسائله في رسائله، و أضاف إلى ذلك ما اتسمت به النساء العربيات من ميزات ـ دون مجون أو فسوق ـ مما يستوجب محبّتهنّ والرغبة في الاستزاده منهنّ، « كاستعمال الروائح الطيبة مثل المسك والعنبر...إلخ. » (الجزائري، 1930، صفحة 165).

إن الأمير وهو يصرح بالطّبيعة الرّجولية للمسلمين والدواعي البيولوجية للنكاح لا يخرج بذلك التصريح عما أباحته الشريعة الإسلامية ، ويكشف بالتالي لسائله الذي حمل سؤاله نبرة تشكيك واتهام، يكشف له عن المخزون الثقافي للشريعة الإسلامية في نظرتها إلى "الزّواج"، من أنها « نظرة سامية موقرة للجنس، بما أضفت عليه من بعد إنساني كريم ويبعده عن وهْدَة التهتك والحيوانية التي نظرت بها إليه مدنيات أخرى » (عشراتي، 2004، صفحة 240). وإذا كان الإنسان في المرجعية الدينية الغربية كان يطرح على نحو مجتزأ فصل بين الروح والجسد مع استهجان المكون الحسي واحتقار مطالبه (ورهبانية ابتدعوها) ما كتبناها عليهم (بوعزة).

وانتهت صيرورة الثقافة الأوروبية في لحظتها الراهنة إلى توكيد الغريزة والجسد، فسقطت هي الأخرى في الرؤية التجزيئية القاصرة عن استيعاب الكائن الإنساني في كليته، وتعدد أبعاده .

إنّ الأمير كان ينظر إلى الزواج والعلاقة بالمرأة علاقة روحية أكثر منها جسدية، وإنّما أبيح الزواج لحفظ النسل وضمان السلامه في الدين، ولا تخرج إجابته عن ظاهرة التسرّي عن هذا الإطار الذي حددته الشريعة الإسلامية ولا يبتعد عن ثقافتها فهو حلال شرعاً ،من مقاصده أيضا حفظ النوع وتعمير الأرض ،ثم نبه سائله إلى أنها ظاهرة لم تتفرد بها الشريعة الإسلامية، بل إن ذلك كان مباحاً في الشرائع القديمة، يقول الأمير: « ... وفعله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ففي التوراة في الإصحاح السادس عشر أن سارة امرأة إبراهيم كانت لها أمة مصرية اسمها هاجر فقالت لبعلها هو ذا حر من الربّ الولد فادخل على أمتي، فدخل فحبلت، وفي الإصحاح الثلاثين أن راحيل أعطت أمتها "نبها" إلى يعقوب وولدت له ولدين... ». ثم يعطي المثل بنبي الله داوود واتخاذه عدة كثيرة من الجواري وكذا ولده سليمان عليهما السلام الذي اتخذ سبعمائة امرأة وثلاثمائة سرية (الجزائري، 1930، صفحة 165).

ثم يستدرك الأمير في إجابته مقدماً نقداً للمدنية الغربية في خروجها عن تعاليم شريعتها، ومنع الرجل من اتخاذ زوجة ثانية وإلزامه بواحدة حتى لو تهيأت الأسباب ودعت الظروف للزواج من أخرى، وما انجرّ عن ذلك من فساد للأخلاق واتخاذ الرجل بدل الزوجة أو السرية؛ مومساً أو خليلة وإقامة علاقات خارج مؤسسة الزواج، ولم يقف هذا الأمر على الرجال بل وقعت فيه النساء الغربيات، وبات ذلك أمراً مشاعاً في مجتمعاتهم حتى غداً شبه تواضع مسكوت عنه ينافي الأخلاق، وهو أمر ينشر الفوضى ويخالف الفطرة السّليمة عند الإنسان عدا عن معارضة الدين كل ذلك بسبب ترك الدين والدعوة إلى الحرية الفردية والحرّية الجنسية التي تنادي بها الحركات النّسوية .

عن منزلة الزوجة ومراعاة حقوقها وأنه حتى لو اتخذ الزوج سرية فإنها « تكون تحت أمرها تقبل يدها ورجلها وتخدمها ولا تخرج عن طاعتها وأمرها ونهيها ولا تحدثها نفسها أنها تساوي سيدتها ولا يمكن أن يقربها سيدها إلا سرا من الحرة ، ولذلك تسمى سرية أخذاً من السر» (الجزائري، 1930، صفحة 165).

ففي إجابته ما يزيل الشكوك ويكشف ما استغلق على فهم دوماس ، عن عادات وتقاليد المسلمين وتحمل الإجابة دحضا للنّسوية التي ماجلبت غير الفوضى للمجتمع الغربي وامعنت في تشييء المرأة .

وينعطف الأمير للحديث عن مسألة الميراث والتفاوت في الحصة بين الذكر والأنثى فيربطه الأمير بالمسؤوليات التي أسندت إلى الرجل وأعفيت منها المرأة في الشريعة الإسلامية من نفقة على الأهل والأقارب من النساء إذا كن بحاجة إليه «بخلاف المرأة فإنها لا تنفع إلا نفسها في الغالب » (الجزائري، 1930، صفحة 177). ثم إن هذه القسمة المتفاوتة في الميراث قد قررتها التوراة قبل القرآن الكريم كما يؤكد الأمير.

وعن مسألة الطلاق و سؤاله عن سبب كثرته عند المسلمين وانعدامه عند الغرب يجيب الأمير بأنه مخرج وحل عندما تعترض الزواج حالة من الانسداد، وأنه « مباح إذا لم يحصل منه إيذاء للمرأة بالباطل» (الجزائري، 1930، صفحة 177). وقد سبق وأن أقرته الأديان القديمة، جاء في الإصحاح الحادي والعشرين من سفر الخروج « إن استقبح سيدها زواجها فليطلقها. » (الجزائري، 1930، صفحة 176).

ومن الأجوبة التي استوقفتنا عند الأمير ما كان يوجه فيه نقداً لمن خرج من العرب عن الشريعة واحتكم إلى هواه، ردّاً على سؤال دوماس «عن وجود عرب يضربون نساءهم ويمتهنوهن وهم مستريحون » (الجزائري، 1930، صفحة 166). إذ يقول: « لا يضرب النّساء إلا أوباش النّاس السّفهاء الذين لا دين لهم ولا مروءة، أما أفاضل العرب وأهل الدّين منهم فإنّهم لا يفعلون مع النّساء إذا فسد حالهن، إلا ما يطيب قلوبهن ويرضيهن من حسن الكلام ولين الخطاب والمداراة والتلطف » (الجزائري، 1930، صفحة 166).

ويعطي النموذج والمثال بسيد الخلق صلى الله عليه وسلم وكمال خلقه ورفقه ولينه وهو يوصى بالنساء خيراً: « ما أكرم النساء إلا كريم ولا أهان النساء إلا لئيم» (الجزائري، 1930، صفحة 171). ويستدل على حب العرب لنسائهم بالمأثور من أقوال الصحابة كقول معاوية رضي الله عنه: « النساء يغلبن الكرام من الرجال، ويغلبهن اللئام » (الجزائري، 1930، صفحة 166). وما أوثر عن الخليفة هارون الرشيد في زوجته أم جعفر وكيف كان يهابها ويجيبها (الجزائري، 1930، صفحة 171)

ليؤكد الأمير مرة أخرى لدوماس وللغرب من خلفه أن مكانة المرأة في الشريعة الإسلامية، وعند المسلمين الذين فهموا مقاصدها وطبقوها ؛مكانة عالية جداً، وأنها أبعد عن الازدراء والتحقير فضلاً عن الضرب وما أولئك الذين يقللون من شأنها بالضرب أو بغيره، فإنهم لا يمثلون الإسلام وليس فيهم شيء من أسلافهم العرب من رقي ونبل في تعاملهم مع نسائهم ويوجه لهم نقداً حتى أنه جعلهم أوباشاً لا مكانة لهم في المجتمع ولا يحسبون عليه.

ثم يحدّث سائله عن مكانة ابنة عمه عنده ليعطيه مثالاً حياًّ، فيقول:" كانت ابنة عمي تغضب عليَّ وتواجهني بما يكره وأصبر لها." (الجزائري، 1930، صفحة 171) ثم يعرض شعراً قاله فيها:

وأخضع ذلة فتزيد تيهاً وفي هجري أراهاَ في اشتداد

فما تنفك عني ذات غزٍ وما أنفك في ذلي أنادي

ومن عجب تهاب الأسد بطشي ويمنعني غزال عن مرادي (الجزائري، 1930، صفحة 171).

وقصائد الأمير كثيرة في زوجته أم البنين وهي كما يصفها الدكتور عشراتي سليمان: « لوحة من العاطفة التي تمجد المرأة لا بوصفها قريناً فحسب، ولكن بصفتها شطراً من الروح وطرفاً من الكينونة والوجود [...] إذْ الكلمة هناك فعلاً تقاطعت مع الحلم وسبحت في أفق الرمز وأعلت المكانة التي للمرأة في رحاب مملكة القلب إلى درجة مفتوحة على واجهة عريضة من معاني العظمة. » (عشراتي، 2004، صفحة 238). فكيف يقدر دوماس بعد هذا الدليل الحي التشكيك قي علاقة المسلم بزوجته،وكيف تسلّلت فكرة الذّكورة والأنوثة إلى فكرنا المعاصر ألهذا الحدّ حدثت قطيعة فعلية مع تراثنا في مرحلة الأمير والّذين جاؤوا من بعده ؟

ويعمق هذه المعاني وهذه الدلالات عن علاقة المحبة والإجلال التي يكنّها العربي المسلم لزوجته في رده على قول دوماس: « وزوجها لا يشاورها». قائلاً: « اعلم أن العرب يحبون النساء محبة عظيمة ويطلقون لهن التصرف في البيت، بحيث تكون للمرأة في بيتها مثل الحاكم الذي أطلق له التصرف في الرعية ولا يخاف تعقباً في حكمه. » (الجزائري، 1930، صفحة 171). إن البيت مملكتها ولا يتدخل في قراراتها حتى الزوج، لامتلاكها قدرة في إدارته وملكة قد لايملكها الرّجل فلها بحسب الأمير مطلق الحرية في التصرف في شؤونه،حيث يشبّهها بالحاكم وهي أعلى سلطة يحوزها الإنسان ليقدّم لدوماس بذلك أحد مفاهيم الحرية التي منحت للمرأة في المجتمع الإسلامي .

ثم يعطي مثالاً عن ذلك بوالدته وما كانت تحظى به من مطلق الحرية في إدارة شؤون بيتها مع كثرة العيال، قائلاً: «في عيال والدي رحمه الله أكثر من ستين نفساً ووالدتي هي التي تحكم فيهم وتنظر في أمورهم من أكل وكسوة وغير ذلك، ووالدي لا يتدخل في شيء من ذلك وإنما يمتثل أمرها» (الجزائري، 1930، صفحة 173).

إن المرأة في المجتمع الإسلامي- كما يخبرنا بذلك الأمير- تحمل عن الرجل عبء تربية الأولاد والإشراف على كلّ حاجات أهل البيت وهي مسؤولية عظيمة ،تعبّر عن أهمّية المرأة في المجتمع من أهمّية الدّور الذي تنهض به، حين تقاسمت مع الرّجل المسؤوليات، وهو دور جوهري في الأسرة والمجتمع ، ليتفرغ هو لمهام فيها خطورة عليها كالجهاد مثلاً، ولكن لم يحصر اهتمامها داخل البيت لعجز منها عن القيادة والتّفكير والإبداع بل حفاظا عليها فقد كانت تحظى بمشورته،وفي استشارتها اعتراف منه بتميّزها وحاجته إليها في كلّ المجالات ، والأمير يحدّث من واقعه و خبرته في علاقته بالمرأة زوجة كانت أو أمّا ، وقد مرّ بنا تخييره لزوجته بعد توليه الإمارة واستشارته لأمّه حول مسألة وقف القتال

وهو لم يشد في ذلك عن السّلف في تعاملهم مع المرأة والمكانة التي كانت تحظى بها عندهم ، بدءا بأمهات المؤمنين فخديجة رضي الله عنها كان لها دور في الدعوة الإسلامية، وما قامت به من دعم للرسول صلى الله عليه وسلم، منذ بدء الوحي ولجوئه إليها «زمليني زمليني دثريني دثريني... ». ، ودور عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في رواية الحديث وتفقيه النساء، بل إنّ من نساء المسلمين من عملت ناظرا على السوق في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وما أدراك ما عمر في شدة غيرته على النساء وتشدده في كثير من الأمور يفسح المجال للمرأة لتكون فاعلة، وسيطول بنا المقام لو عددنا ما لمكانة المرأة والدور الذي قامت به في المجتمع الإسلامي، وكيف ساعدت الرجل في جميع شؤونه، فالمرأة كانت تحظى عند العربي بمكانة عالية عكس نظيرتها الغربية.

لا ننكر أن هناك محطات مرّت بها المرأة العربية بأزمات، نتيجة الضعف الذي انتشر في الأمة حالها حال الرجل، فانعكست تلك الأزمة وحالت دون حقوقها الشرعية وتسلط العرف على الدين، ولكن تلك المحطّات التي ما زالت آثارها إلى اليوم، ليست قارة بل هي استثنائية ووليدة ظروف تاريخية خارجة عما حددته الشريعة الإسلامية« لا يضرب النساء إلا أوباش الناس من لا دين لهم». كما يقول الأمير، أما أهل المروءة والدين فحال المرأة العربية معهم مختلف، وقد انتقد الأمير هذا التراجع في منظومة القيم الأخلاقية في مجتمعاتنا وعدّها خارجة عن الدين وتنافي المروءة والشرف، بل إنّه جعل معيار الكرم والرجولة رهن بقدرة الرجل على إظهار المحبة للزوجة وقبوله دلالها عليه وصبره على ما يكره فيها ومراعاة ضعفها.

ويتجاوز دوماس في أسئلته ما استشكل على فهمه في الشريعة الإسلامية وعادات العرب إلى ماراج في ثقافتهم عن المرأة والجنّة، فيسأل الأمير عما شاع في مرجعيتهم التي احتقرت المرأة ونمطتها مستفسرا: «يقولون أن النساء لا يدخلن الجنة فلابد أن توضّحوا لنا هذا الإشكال» (الجزائري، 1930، صفحة 181).

ويرد الأمير بلهجة تمتزج بالغضب وتكشف عن رفضه هذه الدوغمائية التي وضعت للإقلال من شأن النساء وازدرائهنّ: «إن هذا القول كذب وافتراء صرف، فالنساء يدخلن الجنّة ويكن مع أزواجهن في منازلهن إذا كان زوجها من أهل الجنة وأما إن كان زوجها من أهل النار وهي من أهل السعادة، فإن الله تعالى يزوجها برجل من أهل الجنة... » (الجزائري، 1930، صفحة 171). ثم يستطرد الأمير شارحاً وموضحاً مكانة المرأة في الشريعة الإسلامية مثلها مثل الرجل مساوية له ولها نفس المصير وهو بذلك يخالف ويتجاوز تلك الدوغمائيات الغربية التي حاولت أن تشيّيء المرأة وتزدريها وتبعدها عن أن تكون فاعلة في المجتمع ،بل امتدت إلى آخرتها وقدمت تفسيرات عن مصيرها تكشف عن صورة مقيتة لفكر متحجر متعالٍ يتعارض مع ما جاء به شرع الإسلام من تكريم للمرأة ومراعاة حقوقها مثلها مثل الرجل« ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف». موضحاً لسائله حقيقة نظرة الشريعة الإسلامية للمرأة وعمل المسلمين بذلك.

ثم يتحدث عن الحكمة من احتجاب المرأة في الشريعة الإسلامية من صون العفة وصيانة للحسن «إن الجمال الذي لا صيانة معه فهو مذموم» (الجزائري، 1930، صفحة 172). وعلى الرغم من خروجها ملتحفة فإن حقيقة شرع الإسلام أنه لم يفرض عليها تغطية الوجه واليدين ويعزو الأمير ذلك كان استجابة إلى حاجات العصر، بعدما كثر الفساد والفواحش: «فصار أشراف الناس وأهل الدّيانة يأمرون نساءهم بتغطية وجوههن دائماً » (الجزائري، 1930، صفحة 173). خوفا عليهنّ من أن يتعرّضن للإساءة،خاصّة في مرحلة الاستعمار.

وينتقد الأمير _ردأً على دوماس ويدحض ما كان يعتقده حرية عند الغرب وقيداً وتعسفاً في الحضارة الإسلامية_ حيث ينتقد عاداتهم وأخلاقهم وما تواضع عليه مجتمعهم من إباحة للاختلاط بين الجنسين، وكيف أثر ذلك سلباً على جاذبيتهم وعلاقتهم قائلاً: «فأنتم مع الاجتماع الدائم في راحة من العشق. » (الجزائري، 1930، صفحة 184)،فكثرة اختلاطهم صيّر العلاقات عندهم جسدية بحتة ،مفرغة من الجانب الرّوحي الذي يبنى على المحبّة والمودّة كما هو الحال عند المسلمين.

وبالنظر إلى أسئلة دوماس التي كانت استفزازية فإن الجواب سيكون من طبيعة السؤال، بحيث يظهر لنا موقف الأمير من خلال إجابته، قد تجاوز الفهم والإفهام إلى التأكيد على علو وشرف المنظومة القيمية والمبادئ التي يستند إليها المجتمع برمته في تسيير شؤونه منظومة القيم الإسلامية التي تعلي من شأن الأخلاق السامية وتراهن عليها لأنّ فيها بقاءها وبها حياتها،

وفي ردّ الأمير على قوله: «أن نساء العرب من أعرف النساء بآداب المحبة». ، يجيبه مؤكداً عفة المرأة العربية وعنفوانها مقرّرا أن محبتهن القلبية روحانية لا جسمية ، مستدلا بما دار بين زوجة عبد الملك بن مروان وليلى الأخيلية ،حين سألتها عن عشق العرب ؟

فردت ليلى: يرى الرجل المرأة وتراه فيعشقها فإذا ساعدهما الوقت تلاقيا لا يشتغلان إلا بذكر ما لقيا من الحب لبعضهما بعضا ويشكو كل منهما الشوق إلى صاحبه ويتناشدان الأشعار.

وسألتها زوجة عبد الملك: « ولا يكون بينهما زنا ؟

فردت :النكاح شأن من يطلب الولد لا شأن المحبين، وإذا وقع الجماع فسد الحب» (الجزائري، 1930، صفحة 179).

ثم يعدد له نوع الآداب التي تحفظها المرأة المسلمة مستحضراً ما توحي به النساء بناتها المسلمات حين يقبلن على الزواج بما يحفظ مكانتها عند زوجها فتلازمه محبته لها إذ يوصين بناتهن بحفظ الزوج في غيبته وحضوره في نفسه وماله،

وصحبته بالقناعة ومعاشرته بالسمع والطاعة ،وغيرها من الأخلاق الفاضلة التي تؤكد لدوماس أن النساء المسلمات يمتلكن من الأخلاق الرفيعة والمكانة العالية والعفة، لما ترقى الواحدة منهن لنبل وكرم الزوج المسلم وشرفه وأنهن لا يعرفن من الآداب إلا ما يوجب محبتهن عند أزواجهن وهي ميزتهن قبل الإسلام ، فكيف بهن وقد عرفن واجباتهن وارتضين الإسلام نهجاً وديناً ، فازددن بذلك طهراً وكياسة، الفضل في الأخلاق والقيم التي تؤمن بها نساؤنا ويتمثلنها وهجرتها المدنية الغربية بعزوفها عن الدين والأخلاق ودعوتها لحرّية غير محدودة تسيء إلى المرأة وتشيّئها بدلا من إعطائها حقوقها ومكانتها المستحقّة في المجتمع الإنساني ككلّ.

وفي ضوء ما تقدّم يمكن القول أنّ إجابة الأمير عن أسئلة دوماس قد اتسمت بالتلقائية والصدق وعلتها نبرة الجد، فعكس بحق مكانة المرأة في الشريعة الإسلامية وهي مكانة توقير وإجلال، وقد أثار الحوار نقاطاً هامة وحساسة بالنسبة لوضع المرأة في مجتمعاتنا، وطبيعة علاقتها بالرّجل خاصّة الزّوج ، وسواء أراد دوماس بأسئلته فهم حقيقة وضعية المرأة في المجتمعات الإسلامية والانفتاح عليها من أجل تشكيل صورة موضوعية عن كثير من الأمور المتعلقة بها -قد تكون حجبت عليه الحكمة من تشريعها- ومن ثم فهم عادات وتقاليد العرب كمجتمعات تواجد فيها أم أراد بأسئلته التخجيل والازدراء بهذه الأحكام والعادات من أجل إرباك الطرف المحاور وإرباك قناعاته بالقيم الإسلامية، فإن الأمر الذي يعنينا من هذه الحوارات هو موقف الأمير في حد ذاته وكيف تفاعل مع هذه الأسئلة،فكانت بذلك دحضا للأفكار والشّعارات التي طالما ردّدتها الحركات النّسوية المتصاعدة في ذلك الوقت والّتي برزت بشدّة بعد الثّورة الفرنسية وكانت معاصرة للأمير عبد القادر .

وقد بذل الأمير كل جهده وهو يجيب عن أسئلة دوماس مستنداً إلى حقائق استمدها من الثقافة الإسلامية وعززها بصور حية من واقعه وأثرى إجاباته بحقائق اجتماعية وثقافية وحضارية، وهو وإن كان يشيد في كل مرة بقيمه المستمدة من الدين الإسلامي بخاصة ،فإنه قدم مع ذلك قراءة شاملة للتاريخ الإنساني في كلّيته، وقدم صورة حقيقية لوضع المرأة ليس بالنسبة للشريعة الإسلامية وحسب وإنما أيضا بالنسبة للشرائع السماوية القديمة،ووضعها في الحضارة الغربية بعدما تخلّت عن الدّين ، ثم قارن بين وضعها في الحضارة الإسلامية والمدنية الغربية ، ليكشف عن مكانة المرأة الحقيقية بالنّسبة للشّريعة الإسلامية ، كما قدّم قراءة نقدية للمدينة الغربية حين تخلت عن تعاليم شريعتها فوقعت في إشكالات اجتماعية خطيرة، أدت إلى تردي أخلاقي كانت المرأة ضحية بقدر ما استعملت كأداة لهذا التردي والانحطاط، في حين أن ما بدا لهذا الغرب في الشريعة الإسلامية قيودا ومنعا لحرية المرأة هو في الحقيقة -كما أكّد ذلك- الأمير صون لها، وحفظ لمكانتها وعزتها ،وما التعدد والتسري والحجاب وغيرها ممّا شكل موضوعا للنّقاش ، إنما هي أحكام في سبيل درء الفساد والفتن، وحرز للمجتمع من الوقوع في التردي الأخلاقي، وحفظ النسل وضمان عدم اختلاط الأنساب والاستمرار، وحفظ لبقاء البشرية.

وفي نفس الوقت يرفض الأمير دوغمائية الغرب المادية و يرفض أيّ دوغمائيّة تحيد عن الشّريعة، حيث عدّ ذلك استثناء لا يجب أن يقاس عليه لأنّه يعارض الشّريعة« لا يضرب النساء عندنا إلا أوباش الناس ». مصرّاً في كل مرة على إعلاء القيم الإنسانية المستمدة من الدّين خاصة.

7-خاتمة:

خلاصة القول أنّه إذا كانت أسئلة دوماس قد حملت في طياتها صورة التنميط والشعور بالاستعلاء والتفوق ، فإن الأمير بفكره المتنور وباستناده إلى منظومة قيمية أصيلة وفق ما جاءت به الشريعة الإسلامية، أراد أن يحمل سائله دوماس على التخلي عن الاعتقاد في قدرة المدينة الغربية وفلسفة الأنوار الغربية،على تقديم حلول وأجوبة للإنسان عن إنتاج الحقيقة الإنسانية، فحملت إجاباته دعوة إلى إعادة صوغ ثقافة الغرب وفق معطى معرفي آخر موجود وحسب في الشّريعة الإسلامية، ووجد في التّوراة والإنجيل قبل أن يلحقهما التّحريف، وهذا من شأنه أن يقود دوماس والغرب برمته إلى إعادة التفكير في الوجه المسكوت عنه لعقلانية الأنوار الفرنسية، وللحركات النّسوية وهي تبخس المرأة حقّها وتشيّئها وتختزل دورها ثمّ تأتي مرّة أخرى و ترفع شعارات منحها الحرّية المطلقة لتزيد من امتهان هذه المرأة و استرقاقها.

إن أزمة الأنوار الفرنسية من منظور الأمير، تتمثل في محاولتها تجاوز الدين وتخليها عن المبادئ والقيم الأخلاقية التي حملتها الشرائع القديمة، مما أوقعها في دوغمائيات مادّية أخرى عززت انغلاق الغرب على ذاته وتعصّبه لنموذجه الحضاري المتردي أخلاقيا.

فردّ بذلك على هذه التّيارات رائيا أنّ علاج الأزمة ليس في الشّعارات التي أطلقتها، فذلك سيزيد من امتهان المرأة واستعبادها واستغلالها ،وإنّما الحلّ في عودتها إلى الشّريعة الإسلامية والامتثال للمنهج الرّبّاني الّذي حفظ كرامة المرأة وكرامة الرّجل على حدّ سواء،واستنباط القوانين التي تحدّد العلاقة بينهما، من الدّين لأنّه الحلّ للأزمة والخلاص للمرأة وحفظ لمكانتها،بقدر ما هو خلاص للمجتمعات الإنسانية كلها.

قائمة المراجع:

1. خالد بن سعود البليهد. (بلا تاريخ). "النّسويّات، خطر يهدّد مجتمعاتنا. تم الاسترداد من HTTPS://WWW.GOOGLE.COM/SEARCH.
2. الأمير عبد القادر. (1989). المقراض الحاد، لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد (المجلد 1). الجزائر: دار الطّاسيلي للنّشر والتّوزيع.
3. السنوسي نادرة . (2013). الذّاكرة الذّكورية للفلاسفة الغربيين ضدّ قابلية المرأة للتّفكير ضمن كتاب الفلسفة والنّسوية (المجلد 1). (علي عبّود المحمداوي، المحرر) بيروت، لبنان: منشورات الاختلاف الجزائر منشورات ضفاف.
4. الطيب بوعزة. (بلا تاريخ). الإنسان بوصفه حيواناً. تم الاسترداد من HTTPS.// WWW.ALJAZEERA .NET / OPİNİONS/2006/4/18/2/14/10/2020 .
5. آمال علاوشيش. (بلا تاريخ). المرأة في مرآة الفلاسفة . ضمن كتاب الفلسفة والنّسوية.
6. جواد المرابط. (2007). التصوف والأمير عبد القادر. الجزائر: وزارة الثقافة.
7. حسين المناصرة. (2008). النّسوية في الثّقافة والإبداع (المجلد 1). إربد، الأردن: عالم الكتب الحديث.
8. سليمان عشراتي. (2004). مساجلات في فقه اللغة (المجلد 2). وهران ، الجزائر : دار الغرب للنّشر والتّوزيع .
9. شارل هنري تشرشل. (1974). حياة الأمير حياة الأمير عبد القادر. (أبو القاسم سعد الله، المترجمون) تونس: الدار التونسية للنشر.
10. عصمت محمّد حوسو. (2009). الجندر الأبعاد الإجتماعية والثّقافية ط1،دار الشّروق للتّوزيع والنّشرعمّان ن الأردن 2009 م ص46 (المجلد 1). عمان، الأردن: دار الشّروق للتّوزيع والنّشر .
11. محمد بن عبد القادر الجزائري. (1930). تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر -سيرته القلمية- (الإصدار 2). الإسكندرية: المطبعة لتجارية خرزوري وجويش .
12. نوال السعداوي. (بلا تاريخ). انا ضد الحجاب لأنّه ضدّ الاخلاق جريدة القدس العربي . تم الاسترداد من HTTPS://WWW.GOOGLE.COM/SEARCH?CLİENT=OPER.